المبحث الثاني
شعر المعارضات

مفهوم المعارضة:

هل اختلف الشعر الأندلسي عن شقيقه المشرقي؟ وما أوجه هذا الاختلاف؟

هذان سؤالان قديمان جديدان شغلا كثيراً من النقاد القدماء والمحدثين ومن خلال هذين السؤالين نستطيع أن نفهم ظاهرة المعارضة في الشعر الأندلسي كما نستطيع أن نعللها: "لقد يخطئ من يزعم أن شعر الأندلسيين يغيب في سواد غيره من الأقاليم كالعراق والشام والحجاز، بحيث يشتبه النسيج وتلتحم الديباجة، وذلك زعم من لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره".[1]

فما المقصود بالمعارضة؟ وأين تقع من التقليد أو الإبداع؟

لعل أفضل تحديد لمفهومها ما ذكره أحمد الشايب: "والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما، من أي بحر وقافية، فيأتي شاعرٌ آخر، فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني، وصياغتها الممتازة، فيقول قصيدة في بحر الأولى، وقافيتها، وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية ويفوقه، فيأتي بمعان أو صور بإزاء الأولى، تبلغها في الجمال الفني، أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل، وجمال التمثيل، أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة".[2] ولا علاقة بين اتفاق الشاعرين في العصر أو اختلافهما فيه..

ونلمح الصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي حين نعلم أن المعارضة في اللغة هي المقابلة، يقال: فلان يعارضني أي يباريني، وعارضته في السير إذا سرت حياله وحاذيته، وعارضته بمثل ما صنع أي أتيت إليه بمثل ما أتى، وفعلت مثل ما فعل،[3] ومنه اشتقت المعارضة وهذا هو القياس، كأن عرض الشيء الذي يفعله مثل عرض الشيء الذي أتاه.[4]

ويروق لبعض الباحثين أن يوازن بينها وبين المناقضة، ليبين أوجه اللقاء والخلاف، وهي بينة واضحة، فالأولى تدل على الإعجاب، وتعرب عن الوفاء وتتصل بالبراعة الفنية التي تصل إلى درجة التحدي، وأما المناقضة فتدل على الاختلاف بين الشاعرين وعدم اتفاقهما من حيث الأفكار بشكل أساس، على نحو ما يبينه هذا الحوار بين يوسف بن هارون المعروف بالرمادي وشيخه يحيى بن هذيل، حين يسأله التلميذ عن شعره

---

١ تاريخ آداب العرب الرافعي، ٢٦٩/٣.
٢ تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم، ص ٧، ط السعادة، بمصر، ١٩٥٤.
٣ اللسان مادة عرض، المحيط، عرض.
٤ معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٢٧٢/٤.

فينشده أبياتاً منها:

ومُرِنّه والدّجن ينسج فوقها بُردين من حَلَكٍ ونَوء باكِ
مالت على طي الجناح وإنما جعلت أريكتها قضيب أراكِ

فيعجب بها، وينظم شعراً على نهجها ومنها:

أحمامة فوق الأراكة بيني بحياة من أبكاك، ما أبكاك؟
أما أنا فبكيت من حرق الهوى وفراق من أهوى، أأنت كذاكِ؟

فلما سمعها ابن هذيل، قال: أعارضتني؟ فقال: لا، إنما ناقضتك! فقال له ابن هذيل: اذهب فقد أخرجتك من المكتب.[1]

لكن بعض الأدباء يستجيز أن يساوي بين اللفظين وذلك واضح في قول المنصور بن أبي عامر يخاطب ابن العريف، الذي دخل في منافسة مع غريمه صاعد البغدادي: "ما لك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله".[2] يريد بالمناقضة المعارضة.

إن مجرد قول الشاعر قصيدة في بحر قصيدة أخرى وقافيتها وموضوعها، لا يدل على تقليد مطلق للشاعر السابق على نحو ما ذهب عدد من الدارسين منهم عمر فروخ وبدير متولي حميد[3] والصواب أنها مظهر من مظاهر الإبداع وصورة من صور التفوق، ولا سيما في مراحلها الأخيرة، فقد يبدو الشاعر مقلداً وتكون المعارضة مظهراً من مظاهر هذا التقليد لكنه لن يجرؤ على معارضة كبار الشعراء إلا بعد أن تستقوي لديه ملكة الشعر فيحاول مجاراة أعلام الشعراء ومضاهاتهم، وتنتهي به هذه النزعة وتستوي على ساقها، حين يدرك مرتبة أولئك الشعراء، الذين بدأ معجباً بهم، ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن المعارضة حالة تتجاوز التقليد إلى الإبداع، والمتابعة إلى الابتكار، والشاعر يمزج فيها بين القديم والجديد.. وهي وجه من وجوه النقد الفطري. كما يرى عمر فروخ[4]. أليست هي مظهراً من مظاهر الإعجاب والحكم لشاعر بأنه أحسن؟

ولدينا أمثلة كثيرة على الشعراء الذين توقفوا ولم يتورطوا بولوج هذا الفن، المعارضة أو أنهم عارضوا وأخفقوا على نحو ما حصل حين طلب المنصور بن أبي عامر من صاعد البغدادي (ت٤١٧هـ) أن يعارض ارتجالاً قصيدة أبي نواس التي مطلعها:

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

فلم يجرؤ واعتذر ثم إنه جاء من الغد بقصيدته التي مطلعها:

جذال الشرى إني بكن بصير طوتكن عني خلسة وقتير

يعلق ابن بسام على الحادث فيرى أن المنصور تعمد ذلك وحمله على غرر وعرضه

---

١ الذخيرة، ٣٤٦/١/٣. وينظر تاريخ الأدب الأندلسي، ٢١٤/١. ويشكك ماهر جرار في احتمال أن يكون ابن هذيل شيخاً ليوسف بن هارون، بل يرى أنهما كانا صديقين قريبين، شعر الرمادي، ص ٢٤.

٢ النفح، ٥٨٢/١ .٥٨٣.

٣ تاريخ الأدب العربي، ٧٨/٤. قضايا أندلسية، ٥٨.

٤ تاريخ الأدب العربي، ٧٨/٤.

لسوء الخبر لأنه كان دعياً ومتمادياً في لجاجته.[1]

وقصيدة ابن دراج في معارضتها مشهورة، ومطلعها:

دعي عزمات المستضام تسير فتنجد في عرض الفلا وتغور

ورأى ابن بسام الشنتريني الناقد في عدد من الشعراء إخفاقاً في معارضاتهم حينما ساق خبر أبي عبد الله بن شرف الذي سأل المأمون بن ذي النون أن يقترح عليه أي قصيدة شاء من شعر أبي الطيب حتى يعارضه بقصيدة تنسي اسمه وتعفي رسمه فتثاقل ابن ذي النون إشفاقاً من فضيحته حتى ألح عليه وأحرجه فقال له دونك قوله: "لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي" يقول ابن بسام فخلا بها ابن شرف أياماً فوجد مركبها وعراً... وأرهق نفسه في أمرها عسراً، فما قام وما قعد، ولا حل ولا عقد.[2]

والمعجبون بالمتنبي في الأندلس كثيرون فقد حاول أبو علي بن رشيق أن يعارضه واختار قصيدة من شعره ليست ذات شأن هي "أمن ازديارك في الدجى الرقباء" ثم صنع قصيدة بذل فيها طاقته لكنه قصر عن أن يبلغ شأوه "وعلم أن الإحسان كنز لا يوجد بالطلب.. وصان نفسه عن أن يتحدث عنه بأن تكون الهرة أحزم منه".[3]

ولم تكن نظرة ابن شهيد الأندلسي. فيما نقله الحميدي عن كتابه حانوت عطار. مختلفة عن ابن بسام فقد أنكر على من تولى ديوان الشعراء حيث قدم عبادة بن ماء السماء على عبد الرحمن بن أبي الفهد مع أن الأخير كان من أشعر من أنبتته الأندلس حتى إنه لم يكد يلقى شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه مثل الجواد إذا استولى على الأمد لا يني ولا يقصر.

لقد أنكر ابن بسام في ذخيرته، على بني قومه، تقليدهم لأهل المشرق التقليد الأعمى وذلك كان في مقدمة الأسباب التي دعته إلى تأليف كتابه: "إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على ذلك صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكما".[4]

إلا أن هذا الاعتراف والإقرار من ناقد غيور مثل ابن بسام جرّه إلى الدفاع عن الأندلس أنفة وكبرياء، فأخذ يتتبع محاسن أهل بلده، وعصره، غيرة عليهما ثم صاح صيحته وبأعلى صوته فقال: "وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟ وقد كتبت لأرباب هذا الشأن.. محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب.. وأودعت هذا الديوان.. من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ما

---

١ الذخيرة، ٤/١/٢٤.

٢ الذخيرة، ٤/١/٢٤.

٣ الذخيرة، ٤/١/٢٥ حول منزلة المتنبي لدى الأندلسيين. ينظر بحث د. محسن جمال الدين، (معالم شخصية المتنبي في الأندلس)، المورد، ٦/٣/١٩٧٧.

٤ الذخيرة، ١/١/١٢.

هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة.. لأن أهل هذه الجزيرة. مذ كانوا. رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة.."[1].

لقد كانت نظرة الاستهانة إلى نتاج الأندلسيين واستضآل ما يصدر عنهم، من الأندلسيين أنفسهم، إكباراً لنتاج أهل المشرق، وصورة من صور اتصال الفرع بالشجرة الأم، حتى إن ابن حزم الأندلسي العالم الفقيه أشار إلى هذه الظاهرة في مقام المباهاة بجهود الأندلسيين وتفوقهم على عدوة المغرب في رسالته المشهورة في فضائل أهل الأندلس حيث يذكر أن من أمثالهم "أزهد الناس في عالم أهله" و"لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده" وكأنه يسوغ بهذين القولين ما لقيه هو وأمثاله من أبناء عصره وبلده من عدم احتفاء واهتمام.

وظهرت هذه النظرة كذلك عند المشارقة في مقولة أحد أدبائهم وعلمائهم حين بلغه ظهور كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه فحصل عليه ثم أزرى به باقتباسه من قوله تعالى: ﴿بضاعتنا ردت إلينا﴾ وهو موقف ينم عن ولع المشارقة، وشدة اهتمامهم بتتبع أخبار الأندلس لمعرفة ما يأتي منهم، ومدى السبق الذي قد يحققونه.

وقد وقف أبو عبد الله الحميدي (ت٤٨٨هـ) موقف الحيطة والحذر إزاء هذا التتبع من المشارقة لأخبارهم حين نزل في بغداد وطلب إليه أن يضع مؤلفاً يجمع فيه ما يحضره من أخبار أهل الأندلس في الشعر واللغة والحديث فاعتذر ببعده وقلة مواده متذرعاً بسببين:

أما أن أبخس القوم حظهم، وأنقصهم فضلهم، فأتعرض للائمتهم فيما أوردت، وإما أن أوهم من رأى قلة جمعي، ونهاية ما في وسعي، أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد إلا نزر من الأعداد.[2]

والسببان الآنفان يدلان دلالة واضحة على تحسب الحميدي وحيطته إزاء المشارقة، ونلاحظ أن عدداً من المشارقة أبدى إعجابه بنتاج الأندلسيين ولدينا على ذلك شهادات لأدبائهم وشعرائهم فمن ذلك ما رواه ابن بسام عن أبي علي القالي الذي زار الأندلس وصرح بإعجابه من أهل الأندلس في ذكائهم حتى إنه يتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة.[3]

وكذلك ما روي عن إعجاب شاعر كبير هو المتنبي بشاعر أندلسي هو ابن عبد ربه، حيث أنشد بعض أشعاره فأعجب بها وقال: "لقد يأتيك العراق حبواً".[4] ويقابل هذا الموقف بآخر سلبي حين انتقد أبياتاً ليوسف بن هارون في أبياته:

من حاكم بيني وبين عذولي الشجو شجوي والعويل عويلي

---

١ الذخيرة، ١/١/١٢ ـ ١٤.
٢ الجذوة، ١ ـ ٢. وينظر تيارات النقد، ٩٢.
٣ الذخيرة، ١/١/١٥.
٤ معجم الأدباء، ٤/٢٢٢.

في أي جارحة أصون معذبي سَلِمت من التعذيب والتنكيل[1]

وفي القرن السادس الهجري يعرب ابن العماد الأصفهاني عن إعجابه هو الآخر بسلاسة شعرهم ورقته ورونقه حين يقرأ لبعض شعرائهم.[2]

وتنطوي المعارضة على بعد سياسي، ولا سيما حين يكلف أمير أو حاكم أندلسي شاعراً بمعارضة شاعر مشرقي، فإنه إن نسب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي، يكون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق!

ويتجلى الأمر بشكل واضح حين يكون العداء مستحكماً على نحو ما نجد بين المغرب والأندلس، فقد أمر أبو تميم معد المعز لدين الله الفاطمي شاعره (أبا الحسن علي بن محمد الإيادي التونسي) أن يعارض قصيدة ابن عبد ربه التي يستهلها بقوله:

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

بعد أن اشتهر أمر القصيدة.. فاستجاب لأمر الملك بقصيدته التي مطلعها:[3]

ربع لزينب قد درسْ واعتاض من نُطقٍ خرسْ

مظاهرها:

وإعجاب الأندلسيين بأدب المشرق ونتاجه آكد، وأشد، لأنهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه، ومن مظاهر إعجاب الأندلسيين بالمشرق ما تجلى في صورة المعارضة في الحياة الثقافية والأدبية، حيث نجد ولعهم الشديد باتخاذ أسماء المشرق لمدنهم في الأندلس على نحو ما نقل المقري أن أبا الخطار حسام الكلبي كثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وأنزل أهل دمشق البيرة لتشابههما وسماها دمشق وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص، وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين، وأهل الأردن ربة ومالقة وسماها الأردن، وأهل فلسطين شذونة وسماها فلسطين، وأهل مصر تدمير وسماها مصر.[4]

ومثل ذلك نشهده في اتخاذهم أسماء الكتب والمؤلفات مماثلة لنظائرها المشرقية واحتذائهم فيها مناهج مشابهة لكتب المشارقة فمن ذلك كتاب الحدائق لابن فرج الجياني (ت٣٦٦هـ) ألفه معارضاً كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني[5] (ت٢٩٧هـ)، وكتاب الكبير لأبي بكر الطرطوشي (ت٥٢٠هـ) عارض به كتاب إحياء علوم الدين للغزالي،[6] ولابن عبد ربه كتاب العقد الفريد حاكى فيه عيون الأخبار لابن قتيبة،[7] وكتاب ابن بسام

---

١ وفيات الأعيان، ٢٢٦/٧. اليتيمة، ١١٤/٢.
٢ الخريدة، ١٢٣/٢.
٣ وفيات الأعيان، ١١٢/١، ط إحسان عباس. الوافي بالوفيات، ١٢/٨.
٤ الإحاطة، ١٠٣/١. وينظر تاريخ النقد الأدبي في الأندلسي، ٤٣.
٥ الذخيرة، ١٣/١/١. الصلة، ٥/١.
٦ البغية، ١٢٥. الأعلام للزركلي، ١٣٣/٧.
٧ ابن عبد ربه وعقده، ٥٧.

المشهور الذخيرة تأثر في تأليفه بكتاب يتيمة الدهر للثعالبي،[1] وكتاب أمية بن أبي الصلت (ت٥٢٩هـ) الحديقة قلد فيه كتاب اليتيمة كذلك، ولابن زيدون كتاب التبيين في خلفاء بني أمية في الأندلس، جعله على منزع التعيين في خلفاء المشرق للمسعودي،[2] ولأبي عبد الله بن أبي الخصال كتاب المنهج عارض به كتاب مبهج الثعالبي،[3] وكذلك عارض أبا العلاء في كتاب ملقي السبيل،[4] ولعثمان بن ربيعة القرطبي (ت٣١٠هـ) طبقات الشعراء بالأندلس وهو يشبه طبقات ابن سلام، ولمحمد بن هشام المرواني أخبار الشعراء بالأندلس، يقوم على فكرة الطبقات نفسها، ولعبد الله بن محمد بن مغيث شعر الخلفاء من بني أمية، وهو يشبه كتاب الأوراق للصولي، وليحيى بن الحدج المرسي كتاب الأغاني الأندلسية، وهو كتاب يشبه كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ويطلب الحكم المستنصر من ابن الصفار أن يؤلف كتاباً في أشعار خلفاء الأمويين بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أخبار خلفاء بني عباس، ولابن عبد الغفور الكلاعي[5] كتب عارض فيها أبا العلاء المعري منها في السلطانيات والمقامات والساجعة والغريب، وثمرة الألباب وملقي السبيل وفيها يعارض كتاب السجع السلطاني، والصاهل والشاحج وسقط الزند وغيرها من كتب المعري كما تقدم بنا في دراسة النثر في عهد الطوائف.

ولابن شرف القيرواني مقامات يعارض فيها البديع،[6] كما عارض أبو حفص بن برد أبا الفضل بن العميد في بعض رسائله الديوانية، ولابن خطاب فصل من كتابه فصل الخطاب في معارضة ابن الجوزي على ما سيأتينا، ولابن الخطيب كتاب التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى سلك فيه هذا السبيل.[7]

بل إنهم شبهوا بعض ملوك الأندلس بالخلفاء العباسيين، يقول ابن حيان: "إن المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسي قدوة له، ويهتدي بأخباره"، ويقول ابن القطان عنه: "كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي".[8]

وكذلك كان الشأن في إطلاقهم ألقاب شعراء المشرق على شعرائهم فأبو الأجرب جعونة بن الصمة، وأبو الخطار حسام بن ضرار لقبا بعنترة[9] والرمادي يوسف بن هارون (ت٤٠٣هـ) لقب بامرئ القيس، وغالب بن رباح لقب بأبي تمام، وابن زيدون وأبو عبد الله بن مجبر لقبا بالبحتري،[10] وحمدونة بنت زياد بالخنساء أو صنوبرية المغرب،[1]

---

١ الذخيرة، المقدمة، ٣٢/١/١.
٢ رسالة ابن سعيد في فضائل الأندلس، النفح، ١٧٨/٣ . ١٨٦.
٣ فهرسة ابن خير، ٣٨٦.
٤ تاريخ الأدب الأندلسي، ١١٣/٢.
٥ نفسه، ١١٣/٢.
٦ الذخيرة، ١٩٦/١/٤.
٧ لسان الدين بن الخطيب، ٢٣٨.
٨ البيان المغرب، ٢٨٤/٣.
٩ المغرب، ١٣١/١.
١٠ الذخيرة، ٣٧٩/١/١. رايات المبرزين، ١١١.

وابن اللبانة بالسموءل،[٢] وأبو بكر الأعمى المخزومي ببشار الأندلسي،[٣] وأبو الربيع سليمان بن علي عرف بكثير، ومؤمن بن سعيد بدعبل الأندلس،[٤] والرصافي البلنسي ابن رومي المغرب، وابن خفاجة صنوبري الأندلس، وابن وهبون شبه بأبي نواس والمتنبي، وابن عبدون بالمتنبي، وابن دراج القسطلي وابن هاني الأندلسي وأبو طالب عبد الجبار لقبوا بمتنبي الأندلس، ومروان الطليق شبه بابن المعتز،[٥] وأحمد بن محمد الجيان (تيس الجن) شبه بأبي نواس، والمعتمد وشاعره ابن عمار شبها بالرشيد وجعفر بن برمك، ويحيى الغزال شبه في خمرياته بأبي نواس، وأبو مروان الجزيري شبه بابن عبد الملك الزيات، والأعمى التطيلي بمعري الأندلس،[٦] وابن مرج الكحل بالوأواء.[٧]

وقد عبر أحمد هيكل عن دواعي المعارضات. بشكل عام. ووجد أنها تتمثل في محاولة الأندلسيين التفوق على سابقيهم المشارقة.. وهم في ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً لتأكيد ذوويتهم، وإبراز جهود بلدهم.[٨]

وإذا كان الإعجاب بشاعر أو بقصيدة من قصائده سبباً من الأسباب التي دعت إلى المعارضة. على المستوى الفردي. فإن ذيوع قصائد معينة وانتشارها وإعجاب النقاد بها وارتقاء منزلتها هو الآخر من الأسباب الداعية للمعارضة، وهو أمر شبه متواتر في القصائد المشهورة، فمن ذلك نونية ابن زيدون: "وكان شعرا ابن زيدون مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء" كما يقول أوجست كور،[٩] ومن ذلك سينية ابن الأبار التي قال عنها ابن سعيد:[١٠] "وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطي ومحروم، وأغرى الناس بحفظها، إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم".

ويرى سعد شلبي[١١] أن نزعة التقليد التي أشار إليها ابن بسام وصلت بهم إلى حد الشعور بالحرج من تقليدهم المشارقة وقد تجلى هذا الحرج في مظهريه:

أولاً: تأليفهم الكتب للإشادة بشعرائهم كما فعل الحميري في كتابه البديع، وابن بسام في الذخيرة، وابن خاقان في القلائد والمطمح.

ثانياً: تحرج الشعراء من التقليد والاقتباس من الشعراء المشارقة واتجاههم إلى كبار شعراء الأندلس واتخاذهم أساتذة لهم.

---

١ المغرب، ١٤٥/٢.
٢ المغرب، ٤١١/٢: المعجب، ١٦٩.
٣ المغرب، ٣٢٣/١.
٤ المغرب، ١٣٣/١.
٥ بغية الملتمس، ٤٦٢.
٦ الرايات، ١٢٤.
٧ ينظر تاريخ النقد الأدبي، ٤٤.
٨ الأدب الأندلس، ٢٥٩.
٩ تاريخ الفكر الأندلسي، ٨٦.
١٠ اختصار القدح المعلى، ص ١٩١.
١١ دراسات أدبية، ٦٨ . ٧١.

إذا كانت المعارضة تلتزم الوزن والقافية فإن موضوعها لا يتحدد بل يتعدد والمعارض الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبعد عنه حتى ينتصر عليه.

وتتعدد ضروب المعارضة وأنماطها في الشعر الأندلسي، وقد صرح ابن خفاجة بإعجابه بالمتنبي في مقدمة ديوانه وحدد موضوع الإعجاب بقوله: "من لف الغزل بالحماسة" وأورد على ذلك مقطعات من شعره من مثل قوله:

ورب ليـــالٍ بـــالغميم أرقتهـــا لمرضـى جفـون بـالفرات نيـام

ومقطعات أخريات[1] ويعقب عليها بقوله: "ولكل واحد مأخذ طريف لطيف يأخذ بمجامع النفوس" مما يستدل معه أن معارضته ومحاكاته للمتنبي لم تكن محاكاة عمياء صماء بل إنه كان يضفي على قصائده نسغاً من روحه بحيث يتميز أسلوبه بطابعه، بل إننا نجد من أنواع المعارضات عنده ما يأخذ المعنى والوزن ولا يلتزم القافية،[2] ومن القصائد ما لم يصرح به على أنه يعارض فيها بل أشار إلى أنه يقتفي طريقة مهيار.[3]

ويرى محمد نوفل أن اتفاق القصيدتين في البحر والروي والموضوع يجعل المعارضة تامة ووافية وأن أي اختلاف في هذه العناصر الثلاثة يجعلها معارضة ناقصة.[4]

ونلاحظ أن النقاد نظروا إلى المعارضة وكانوا في ذلك بين منكر ومستحسن وقد تقدم بنا موقف ابن شهيد حين ترجم لعبد الرحمن بن أبي الفهد الذي عارض عدداً من الشعراء فاستحسن ذلك منه ووجد فيه إمارة على الإبداع والتفوق، لكننا نشهد طائفة أخرى من النقاد تنكر وتستهجن وتنعى على الشعراء نهجهم هذا على نحو ما يسوق خبرهم ابن خفاجة ليرد عليهم ويطالبهم بأن يأتوا بشيء يسير من هذا الأسلوب الضعيف على زعمهم، ويتردد مثل هذا الحوار في مواضع أخرى من ديوانه.[5]

ودراسة عجلى عن المعارضات في الشعر الأندلسي لا تستطيع أن تستقرئ نصوصها وتستبين أساليبها وضروبها على نحو دقيق ولكننا سنشير إشارة عامة إلى أبرز أنماط المعارضات لمحاولة إعطاء فكرة عن حجم هذه الظاهرة وأبرز شعرائها، والمكثر منهم والمقل.

---

١ ديوان ابن خفاجة، ص ١٦.
٢ ديوانه، ص ٣٥٨.
٣ ديوانه، ص ١٤.
٤ تاريخ المعارضات، ١٣.
٥ الديوان، ص ١٢، ١٥، ١٨.

اعلامها

نستطيع أن نقرر أن أبرز أعلامها في القرن الرابع الهجري هو ابن عبد ربه حيث تجلت لديه هذه الظاهرة واكتملت في شواهد كثيرة وأمثلة شعرية متعددة، لقد كان ينظم الأبيات ثم يذيلها ببيت من القصيدة التي عارضها وترد أكثر هذه القصائد مجتمعة في آخر الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر والقوافي، ومجموع ما يرد منها ثلاث وستون قطعة بعدد ضروب العروض التزم فيها ذكر الزحاف والعلل التي يقوم ذكرها في الجزء الأول الذي اختصر فيه فرش العروض، ليكون كتابه مكتفياً بنفسه فمن أمثلة ذلك ما أورده في البحر البسيط والضرب المجزوء:[1]

ظالمتي في الهوى لا تظلمي ... وتصرمي حبل من لم يصرم
أهكذا باطلاً عاقبتني ... لا يرحم الله من لم يرحم
قتلت نفساً بلا نفسٍ وما ... ذنب بأعظم من سفك الدم
لمثل هذا بكت عيني ولا ... للمنزل القفر وللأرسم
"ماذا وقوفي على رسم عفا ... مخلولق دارس مستعجم"

والبيت الأخير للمرقش كما أشار إلى ذلك محقق العقد، وقد تقدم بنا نص آخر في أبيات لامية عارض فيها عدي بن زيد العبادي وذلك حين درسنا أشعاره.

وقد أشرنا في حينها إلى نزعة الشاعر المستحكمة إلى المعارضة وأنواع ما يرد في شعره منها وخصائصها.[2]

ومن شعراء هذا القرن كذلك جهور بن أبي عبدة الذي كان شاعر عبد الرحمن الناصر إلا أن أكثر أشعاره لم تصل إلينا ومما أورده ابن الأبار قطعة من خمسة أبيات قالها في تفضيل الورد وكأنه يرد بها على ابن الرومي (ت٢٨٣هـ) في قصيدته التي مطلعها:

خجلت خدود الورد في تفضيله ... خجلاً توردها عليه شاهد

وقد تركت هذه القصيدة آثاراً بعيدة في شعراء الأندلس على نحو ما أورد الحميري في كتاب البديع في وصف الربيع، وممن عارضها أبو عثمان سعيد بن فرج الجياني، وأبو بكر بن القوطية، وقصيدة ابن الرومي قالها مفضلاً النرجس على الورد، وهي أربعة عشر بيتاً، وفيها يقول:[3]

شتان بين اثنين هذا موعدٌ ... بتسلب الدنيا، وهذا واعدُ
للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ
من فضله عند الحجاج بأنه ... زهر ونور وهو نبت واحدُ

---

١ العقد الفريد، ٤٤٩/٥.
٢ اعلاه ابن عبد ربه، ص ٨٨.
٣ ديوان ابن الرومي، ٦٤٢/٢. تحقيق د. حسين نصار، دار الكتب المصرية، ح ١ . ٦، القاهرة، سنة ١٩٧٦.

يحكي مصابيح السماء وتارة ... يحكي مصابيح الوجوه تراصدُ
والورد. لو فتشت. فردٌ في اسمه ... ما في الملاح له سمي واحدُ
هذي النجوم هي التي ربّتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالدُ
أين العيون من الخدود نفاسةً ... ورياسةً لولا القياس الفاسدُ؟

أما أبيات ابن أبي عبدة فهي قائمة على الاحتجاج يحاول فيها أن يثبت للورد صفات يفضل النرجس إذ أنه على الرغم من مجيئه متأخراً فهو يجدد الحياة فيبعث فيها النشاط حين تكون النواوير الأخرى ومنها النرجس مصفرةً لتموت وليست للنرجس ميزة التبشير لأن المبشر به هو الأهم كما يقول في أبياته:[1]

خضعت نواوير الرياض لحسنه ... فتذللت تنقاد وهي شوارد
وإذا تبدى الورد في أغصانه ... ذلت، فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً ... بطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه ... خبرٌ عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه ... بقيت عوارفه فهن خوالد

ومن بدائه الأمور أن نجد شعر الطبيعة معدوداً في موضوعات الأندلس الأصيلة التي تقترن بالبيئة اقتراناً مباشراً، إذ أن نظمهم فيه ينم عن اتجاه أصيل نتيجة للتفاعل بين الشاعر والطبيعة الأندلسية التي من خصائصها هذا الجمال المتفرد.

لكن الشعر المشرقي بقي يرفد الأندلسيين حتى في مثل هذه الموضوعات، وظل شعراء الأندلس يستلهمون تجاربهم من النماذج الجيدة في الشعر المشرقي حتى نجد قصيدة أبي تمام التي مطلعها:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر ... وغدا الثرى في حليه يتكسر

يعارضها أبو بكر بن نصر الكاتب، وابن قلبيل البجائي.[2]

وفي مطلع القرن الخامس الهجري يطالعنا شاعر كبير هو أبو عامر بن شهيد الذي كان شاعراً وناثراً وناقداً، وقد دعته ثقافته الأدبية الواسعة إلى أن يخوض غمار هذا الميدان على نحو ما تقدم بنا حين وقفنا عند دراسة رسالته التوابع والزوابع[3] والذين عارضهم كثيرون، امرؤ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وأبو تمام والبحتري وأبو نواس والمتنبي وتأتي معارضاته على صورة مقطعات شعرية أو قصائد ينشدها بعد أن يستمع إلى شيطان ذلك الشاعر ويكتفي من هؤلاء الشعراء بمطالع قصائدهم وأحياناً يورد شيئاً من أبياتهم على نحو ما فعل مع أبي نواس فمن معارضاته قصيدته التي عارض فيها امرأ القيس التي مطلعها:[4]

---

١ الحلة السيراء، ٢٤٧/١ . ٢٤٨. مطمح الأنفس، ١٨٥.
٢ تاريخ الأدب الأندلسي، ١١١/١. وترجمة الشاعرين في الجذوة، ٣٩٤، ٣٩٠.
٣ أعلاه، ص ١٨١.
٤ ديوان امرئ القيس، ق (٤).

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا وحلتْ سُليمى بطنَ قوٍ فعرعرا

فيعارضه أبو عامر في قسمها الذي يفتخر فيه امرؤ القيس بنفسه وشجاعته وهي في أصلها تجاوز ستين بيتاً وأما أبيات ابن شهيد فهي جزء من قصيدة لم يصل منها إلا خمسة أبيات، والمطلع:[1]

"شجته مغانٍ من سليمى وأدور" ثم يقول:

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا فتحدرُ
تكلفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسرُ
ومن تحت حضني أبيض ذو سفاسق وفي الكف من عسالة الخط أسمرُ
هما صاحباي من لدن كنتُ يافعاً مقيلان من جد الفتى حين يعثرُ
فذا جدول في الغمد تسقى به المنى وذا غصن في الكف يحنى فيثمر

وخلاصة القول إن فكرة المعارضة لا تدل على مجرد التقليد وليس فيها ما يشير إلى ضعف المستوى الفني للشاعر كما ليس فيها ما يدل على ضعف الأدب الأندلسي قياساً لنظيره المشرقي، صحيح أن الأندلسيين عارضوا المشارقة للإعراب عن إعجابهم لهؤلاء الشعراء وبقصائد منتخبة لهم، لكننا وجدنا المعارضة تجري فيما بين الأندلسيين أنفسهم، كما وجدنا المشارقة هم المعارضون لقصائد الأندلسيين كذلك.

وتتردد فكرة الاتفاق بين الأدبين المشرقي والأندلسي لدى كثير من الباحثين وهو اتفاق طبعي منسجم مع طبيعتهما، لأن المنابع الفكرية والثقافية وروافدها واحدة.. ولذلك اتجهت الدراسات إلى عقد موازنات بينهم وبين أهل المشرق، وذلك ما حجب عنا روائع الأندلسيين، فشوهت هذه الموازنات مجال أشعارهم عندما وجدنا الشبه قوياً بين الأدبين.[2]

وتأخذ فكرة التقليد بعداً واقعياً وتطبيقياً لدى أحد الباحثين الذين وقفوا عند دراسة الأدب الأندلسي في فن من فنونه هو النثر حيث يرى حازم عبد الله[3] أن الأدبين المشرقي والأندلسي كل متكامل مكون من أجزاء لا يمكن فصلها إلا بما يمتاز به كل جزء في ذاته من غير إخلال بالقواعد لأمور عديدة:

١. أن الأدبين مكتوبان بلغة واحدة هي اللغة العربية.
٢. أن ثقافة الأدباء الأندلسيين هي ثقافة الأدباء المشارقة نفسها، قد أخذت الطائفتان من معين واحد، وسارت على مثل وقواعد متفقة موحدة.
٣. الصلة بين المشرق والأندلس كانت قوية متينة ودائمة مستمرة وبخاصة على الصعيد الثقافي والعلمي حيث كانت أفواج العلماء والأدباء تروح وتغدو من الأندلس إلى المشرق أو من المشرق إلى الأندلس والمؤلفات كذلك.

---

١ ديوانه، ق ٢٤.
٢ دراسات أدبية، ٧١.
٣ النثر الأندلسي، ٥٢٧.

٤. وجودهم في بلد بعيد عن المشرق كان يحدوهم إلى التطلع إلى إخوانهم ويشدهم إلى التمسك بمثلهم وأفكارهم وعقائدهم كما يشدهم إلى آثارهم في شتى ألوان المعرفة.

٥. الشبه الكبير في مظاهر البيئة الأندلسية بمظاهر البيئة العربية.

هذه الأمور جعلت الأندلسيين معنيين بأهل المشرق وما يصدر عنهم كما كان من الطبعي أن يتشابه الأدباء الأندلسيون في آثارهم بآثار إخوانهم المشارقة.

من هنا يخلص حازم إلى القول بأن فكرة التقليد لا مكان لها في العلاقة بين الأدبين كما أن فكرة التقليد لم ترد على أذهان الباحثين بين مصر والعراق والشام والحجاز أو أي إقليم عربي وإقليم عربي آخر.

وأن هناك أموراً امتازت بها الأندلس عن المشرق مع اتفاق اللغة والعادات والعقيدة وغيرها منها:

١, البيئة الأندلسية التي التقت مع المشرقية، ولكنها زادت عليها وأربت في صفاتها ومظاهرها بما احتوته من جمال الطبيعة الدائم.

٢. العادات الأندلسية التي انطلقت من العادات العربية الأصيلة لكنها أفادت من بعض العادات المحلية التي كان عليها أهل البلاد الأصليون.

٣. الامتزاج الذي حصل بين العرب وغيرهم من الأقوام.

ومن الدراسات الحديثة كتاب محمد محمود قاسم نوفل[1] الذي كرسه لدراسة المعارضات في الشعر العربي بشكل عام وقد تناول في الفصل الأول معاني ومدلولات المعارضة، اللغوي الاصطلاحي ثم استعرض في الفصل الثاني المعارضات في العصر العباسي حتى نهاية العصر الأموي وجاء الفصل الثالث أطول فصول الكتاب حيث وقفه لدراسة المعارضات في بلاد المغرب الإسلامي وقد جعله في ثلاثة أضرب، المعارضات الأندلسية الداخلية، ومعارضات الأندلسيين لشعراء المشرق، المعارضات في الموشحات، وأما الفصل الرابع فقد درس المعارضات لبعض القصائد المشهورة كقصيدة بانت سعاد، والبردة، وكان الفصل الخامس آخر فصول الكتاب درس فيه المعارضات عند البارودي والهاشمي وأحمد شوقي ومعارضات منوعة بين عدد من الشعراء المعاصرين والقدامى.

والكتاب بوجه عام يحقق الهدف المعقود عليه بتعريفنا بأكبر عدد وصل إليه الباحث من المعارضات وفصول الكتاب تناولت القضية بشكل عام وإن كانت قد أهملت دراسة المعارضات المشرقية للشعر الأندلسي وهي كثيرة، ثم تأتي دراسة أخرى أنجزت حديثاً لتقف عند المعارضات الأندلسية بشقيها، التي عارضت الشعر المشرقي وتلك التي كانت بين الأندلسيين أنفسهم، وذلك في القرنين الخامس والسادس

---

١ مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، بيروت، ١٩٨٣.

الهجريين.[1]

وسنعرض لأبرز المعارضات بضروبها الثلاثة مشيرين إلى أشهر شعرائها لنتعرف على أبعاد هذا الفن وهي:

أ. معارضة الأندلسيين للمشارقة:

١. سعيد بن جودى في مقطعة مطلعها:

الـدرع قـد صـارت شـعاري فمـا أبســـط حشـــاها لتهجـــاعي

يعارض فيها أبا قيس بن الأسلت.[2]

٢. أبو أيوب سليمان بن الحكم في قصيدته التي مطلعها:

عجباً يهاب الليث حدّ سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان

يعارض هارون الرشيد.[3]

٣. أبو بكر بن سوار الأشبوني، في قصيدته التي مطلعها:

وليلٍ كهمِ العاشقين قَميصُه ركبتُ دياجيه ومركبها وعر

يعارض أبا فراس الحمداني (ت٣٥٧).[4]

٤. صاعد الأندلسي يمدح أبا حسن بن وداعة السلمي سنة ٤١٧هـ في قصيدته التي مطلعها:

أبـا حســن ربيعــة مــن ســليم ســـنان زان عاليـــة الرمـــاح

يعارض ابن ميادة، الرماح بن أبرد بن ثوبان (ت١٣٦هـ).[5]

٥. أبو جعفر بن الأبار في قصيدته التي مطلعها:

غادرت عرضي عرضة وأبحته وتركت نهب نفائس ونفوس

يعارض الأشتر النخعي (ت٣٧هـ).[6]

٦. ابن عبد ربه في قصيدته التي مطلعها:

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل

يعارض مسلم بن الوليد (صريع الغواني) (ت٢٠٨هـ).[7]

٧. أبو الخطاب عمر بن أحمد بن عطيون التجيبي الطليطلي (من أعلام الذخيرة) يمدح المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس في قصيدته التي مطلعها:

---

١ الباحث يونس طركي سلوم البجاري، كلية الآداب، جامعة الموصل، آذار، ١٩٨٨. وهي رسالته للماجستير.
٢ المقتبس، لابن حيان، ١٢٣ . ١٢٤، ط أنطونيو.
٣ الذخيرة، ٤٧/١/١. وتنسب الأبيات للعباس بن الأحنف كذلك.
٤ الذخيرة، ٨١٥/٢/٢.
٥ الذخيرة، ٥٣/١/٤.
٦ الذخيرة، ٣٩٦/١/٢.
٧ ديوان ابن عبد ربه، ص ١٣٢.

عاكف جفني على سهره سيف جفن سل من حوره

يعارض أبا نواس (ت١٩٨هـ).[١]

٨. ابن الخطيب في قصيدته التي مطلعها:

أطلعن من سدف الفروع شموسا ضحك الظلام لها وكان عبوسا

يعارض أبا تمام (ت٢٣١هـ).[٢]

٩. وفي قصيدة ابن عطيون التي مطلعها:

أمن كيوان أطلب أن أقادا لقد أعظمت شأوى ذا بعادا

يعارض أبا العلاء المعري (ت٤٤٩هـ).[٣]

١٠. ابن اللبانة الداني في قصيدته التي مطلعها:

في الطيف لو سمح الكرى تعليل يكفي المحب من الوفاء قليل

يعارض أبا المظفر البغدادي من شعراء القرن الخامس الهجري.[٤]

١١. ابن الجنان الأندلسي في قصيدته التي مطلعها:

عيون النهى بين التدبر والفكر جلبن الهدى من حيث أدري ولا أدري

يعارض علي بن الجهم (ت٢٤٩هـ).[٥]

١٢. ابن المرابط (من العصر الموحدي) في قصيدته التي مطلعها:

أمالك رَقّ الجود والمجد والفخر حنانيك في الإغفاء عن خطة الشعر

يعارض رائية علي بن الجهم كذلك.[٦]

١٣. الفقيه أبو إبراهيم (من العصر الموحدي) في قصيدته التي مطلعها:

عيون المها بين البساتين والقصر تملكن قسراً مهجتي، وهي لا تدري

يعارض رائية بن الجهم كذلك.[٧]

١٤. ابن دراج في قصيدته التي مطلعها:

دعي عزمات المستضام تسيرُ فتندد في عُرض الفلا وتغورُ

يعارض أبا نواس[٨] على نحو ما سنفصل القول فيها.

١٥. وفي قصيدة أبي المطرف بن عميرة (ت٦٥٨هـ) التي مطلعها:

أقلوا ملامي أو فقولوا وأكثروا ملومكم عما به ليس يقصر

يعارض رائية عمر بن أبي ربيعة.[١]

---

١ الذخيرة، ٣/٢/٧٧٤.

٢ نفح الطيب، ٦/١٩٥.

٣ الذخيرة، ٣/٢/٧٧٧.

٤ الذخيرة، ٣/٢/٦٩٠.

٥ ديوان ابن الجنان، رقم ١٧. وينظر: الفصل الثالث، المبحث الأول من هذا الكتاب.

٦ زواهر الفكر، تحقيق حسن فليفل، ص ٣٥٥ . ٣٥٧.

٧ نفسه، ص ٥٢١ . ٥٢٢.

٨ ديوان ابن دراج، ق ٧٨.

١٦. أبو بكر بن حُبيش في قصيدته التي مطلعها:[٢]

سَرَت ولواء الصبح قد كان ينشرُ وجِبرُ الدُّجى عن مُهرَق الأفق مبشر

يعارض رائية ابن أبي ربيعة.

١٧. ابن حزم الأندلسي في قصيدته التي مطلعها:

أودك وداً ليس فيه غضاضة وبعض مودات الرجال سراب

يعارض فيها المتنبي وأبا فراس الحمداني.[٣]

١٨. سعيد بن جودي، أنشد قول أبي قيس بن الأسلت ثم عارضه.[٤]

١٩. ابن لب، أبو سعيد فرج بن قاسم الغرناطي (ت٧٨٩هـ) في قصيدته التي مطلعها:

إذا البـرق ثـار أثـار ادكـارا لقلبـي فـأذكى عليـه أوارا

يعارض فيها رائية محمود الحلبي في المديح النبوي.[٥]

ب. معارضة الأندلسيين فيما بينهم:

١. ابن اللبانة (٥٠٧هـ) في قصيدته التي مطلعها:

خلعت عذاري في عذارٍ على خد حكى خضرة الريحان في حمرة الورد

يعارض ابن خفاجة.[٦]

٢. وفي قصيدته التي مطلعها:

عرج بمنعرجات واديهم عسى تلقاهم نزلوا الكثيب الأوعسا

يعارض أبا الربيع سليمان بن أحمد القضاعي.[٧]

٣. أبو مروان عبد الملك بن رزين (القرن ٥هـ) في قصيدته التي مطلعها:

هبوا لنا حظكم من آل لبّونِ كم تبخلون علينا بالرياحين

يعارض أبا الحسن بن سابق.[٨]

٤. أبو الربيع القضاعي في قصيدته التي مطلعها:

زعم العبير بأنه حاكاكِ كَذَبَ العبير وما حكى ريّاك

---

١ أبوالمطرف بن عميرة، ص ٢٣١.

٢ مختارات من الشعر المغربي، ص ١٢٣ . ١٢٤.

٣ رسائل ابن حزم الأندلسي، ٨٥/١.

٤ المقتبس، ط أنطونيو، ص ١٢٣ . ١٢٤.

٥ نثير الجمان، ص ١٠٠، ١٨٧.

٦ ديوان ابن اللبانة، ق ٢٢. وينظر ديوان ابن خفاجة، ٢٧٨، واستبعد رأي د. نوفل في تاريخ المعارضات، ص ٨٠ . ٨١ أن يكون بين القصيدتين معارضة، لعدم ورود إشارة في كتب التراث، ولضعف الصّلة من ناحية المضمون، وللتفاوت بين وفاة الشاعرين، إذ إن ابن اللبانة توفي سنة ٥٠٧هـ، وأما ابن خفاجة فتوفي سنة ٥٣٣هـ.

٧ ديوان ابن اللبانة، ق ٤٥. وينظر: تاريخ المعارضات، ص ٧٨ . ٧٩.

٨ الذخيرة، ١٢٣/١/٣.